كانت الساعة تشير إلى السادسة مساءً، وهو الوقت الذي تعود فيه الحياة عادةً إلى أرجاء بيتنا بضحكات أمي وحركتها الدؤوبة. لكن اليوم كان مختلفاً؛ فقد اضطرت أمي للسفر فجأة لعيادة جدتي المريضة، تاركةً وراءها فراغاً لم نكن ندرك حجمه إلا حين حلّ السكون الثقيل.
بمجرد دخولنا المنزل، استقبلنا صمتٌ موحش. الجدران التي كانت تنبض بالدفء بدت باردة، والمطبخ الذي كان يفوح برائحة التوابل والخبز الشهي أصبح مهجوراً إلا من أوانٍ مكدسة. شعرتُ وكأن الزوايا تسأل عنها؛ فكرسيها في غرفة الجلوس خالٍ، وسبحتها المركونة بجانب السرير تفتقد لمسة يديها.
تحول النظام الذي اعتدنا عليه إلى فوضى عارمة. أخي الصغير يبحث عن جواربه الضائعة، وأبي يحاول عبثاً إعداد وجبة عشاء بسيطة، بينما كنتُ أنا أحاول تنظيم الوقت بين المذاكرة والقيام ببعض شؤون البيت. اكتشفنا جميعاً أن "النظام" الذي نعيشه لم يكن صدفة، بل كان نتيجة جهد خفي وتعب صامت تبذله تلك الإنسانة العظيمة دون تذمر.
لم يكن غيابها غياباً جسدياً فحسب، بل كان غياباً للأمان. فمن يمسح على رؤوسنا إذا تعبنا؟ ومن يطمئننا بكلمة واحدة إذا قلقنا؟ في تلك الليلة، أدركتُ أن الأم هي العمود الذي يرفع سقف البيت، فإذا غاب العمود، تداعى البنيان وأصبح مجرد جدران صماء لا روح فيها.

لقد علمني غياب أمي القصير درساً لن أنساه؛ وهو أن وجودها نعمة لا تقدر بثمن، وأن كل تفصيل صغير في حياتنا يحمل بصمتها الجميلة. فليحفظ الله أمهاتنا، وليدم عليهن الصحة والعافية، فهنّ السراج الذي لا ينطفئ نوره أبداً.